الفصل الثالث

الصوفيون والمسيحيون

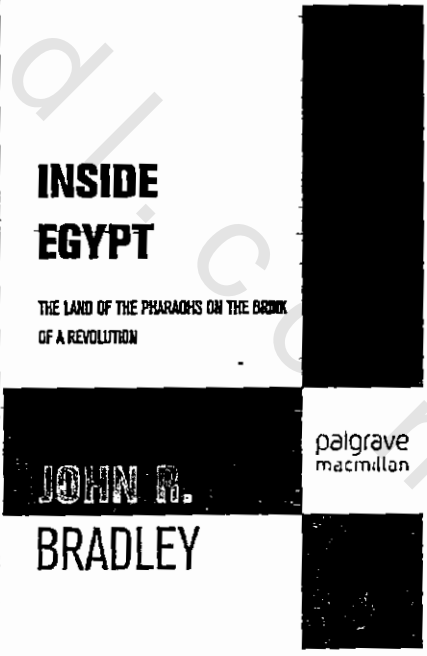

تتميز مصر بمفارقة: تؤكد الاتجاهات السياسية والأيديولوجية القيادية على المطابقة والوحدة، ويميل معظم الأجانب للتفكير بمصر كبلد متجانس بدرجة كبيرة (مسلمون، عرب)، بينما يوجد في الواقع تنوع كبير لو سُمح له بالازدهار ربما أبدع أفكاراً جديدة سياسياً واقتصادياً على السواء. ومهما كانت الأسباب، وهي كثيرة، يؤكد كلاً من النظام ومعارضته الرئيسية، الإخوان المسلمين، على المطابقة. بالنسبة للإخوان المسلمين راجع هذا ظاهرياً لمفهوم التوحيد أو وحدانية الله الذي تم مطه لتصور عام لكيفية وجوب تنظيم المجتمع. بموازاة ذلك، لا يُنظر إلى الاختلاف، سواء في ظل ناصر أو خليفتيه، السادات ومبارك، على أنه مصدر قوة بل كشكل من الضعف. لقد كان التبرير من فترة طويلة هو الصراع مع إسرائيل؛ فالعدو المشتت عدو ضعيف. ومع أن مصر في سلام مع إسرائيل رسمياً، إلا أنه سلام بارد وتظل إسرائيل هراوة

مفيدة لتخويف وإسكات وجهات النظر المختلفة عن تلك المسموح بها رسمياً.

سيتم بحث تأثير هذا الانجذاب للعقدانية (الدوجماتية) ومقاومة التنوع بتفصيل أكبر في هذا الفصل والذي يليه، لكن دعنا نضعه أولاً في منظور شخصي. سعد الدين إبراهيم مهذب مسن ومجامل وذو روح كريمة وصاحب فكاهة. إنه أيضاً عالم اجتماع ثاقب البصيرة ويمكن القول ناشط حقوق الإنسان المصري الأشهر، ذو علاقات مع صحافيين ورسميين عديدين. إنه أيضاً شوكة في خاصرة الحكومة المصرية. لقد تمت مضايقته خلال التسعينيات لتسليطه الأضواء على التمييز الذي واجهته أقليات مصر الدينية والعرقية؛ فقد مُنع في آخر دقيقة مؤتمر نظمه حول الموضوع لأنه «سيلطخ صورة مصر في الخارج.» يجب القول أن هذا غريب إلى حد ما لكنه يكشف اتهاماً: يبدو أن إظهار المصريين شعب متنوع يدمر صورة مصر أو على الأقل صورة الحكومة بين الآخرين، بينما ربما اعتقد امرؤ بأن التنوع يجب أن يُحترم ومصدر للفخر. يبدو أن الأمر ليس كذلك، آخذين في الاعتبار خرافة النظام عن الوحدة. ويبدو أنه لم يكن ملطخاً لصورة مصر في الخارج سجن وتعذيب إبراهيم في ٢٠٠٢م، عندما لفت الانتباه لمخالفات الانتخابات وتزويرها. إن انتقاد مصر في كلا المناسبتين بشكل واسع لسعيها لإسكات ناقد بارز وشهير يجعل المرء يتساءل كم النظام قلق بشأن صورته حقاً. ما هو واضح بالتأكيد أن النظام ليس قلقاً جداً بشأن الحقيقة – أو ربما قلق حقاً لأن الحقيقة ستكون محرجة له وستلطخ صورته في الخارج. إن ما كان يقف وراء مضايقة النظام على الأقل لإبراهيم إصراره على تحري الهوة الواسعة بين ادعاءات النظام والواقع. تلك الهوة هائلة سواء عند الحديث عن ادعاءات النظام بأن مصر واحدة وعند الحديث عن ادعائه بالسماح لتشكيلة من الأصوات بالتنافس عبر الانتخابات. حقاً، إن الادعاء بالوحدة لا ينسجم أصلاً مع مبادئ الديمقراطية القائمة على وجود التنوع والاختلاف فقط بل أيضاً، وربما بأهمية أكبر، على امتلاكهم الشرعية والقيمة.

ما يؤسف له بصفة خاصة بشأن التقاء تأكيد النظام والإخوان المسلمين على المطابقة أن تنوعية مصر مصدر لقوتها. وقد تمت مناقشة فوائد فترة التنوع والكزموبوليتانية التي سبقت ثورة ١٩٥٢ سابقاً، وبالتأكيد أحد مصادر الحنين لتلك الفترة بلاهة المشهد

الثقافي المصري الحالي. ومع ذلك، تظل مصر خليطًا نابضًا بالحياة من مجموعات إقليمية ودينية وعرقية مختلفة تقاوم بقوة كلاً من التسلطية المركزية والمطابقة الدينية المداهنة. وتتضمن مثل هذه المجموعات المسيحيين الأقباط الذين يشكلون ما بين ١٠-١٥٪ من السكان؛ والمصريين الصعايدة الذين يحافظون على علاقات قرابة قبلية و(في القرى) على نظام حكم ذاتي حيث لا يوجد حتى بوليس محلي (بدلاً من ذلك يحل رئيس القرية النزاعات بين المواطنين)؛ والصوفيين الذين يقيمون إشراقاً وتواصلاً روحياً شخصياً مع الله؛ ومئات الآلاف من البدو الفقراء في منطقة سيناء الذين تمتد ولاءاتهم القبلية إلى ما وراء الحدود داخل إسرائيل وبهذا يشكلون كابوساً أمنياً مستمراً للنظام المصري؛ والنوبيين غير العرب الذين رغم مواجهتهم لمزيج غريب من التساهل العاطفي وعنصرية فظة من المصريين العرب، يواصلون التحدث بلغاتهم المُعابَة المختلفة ويحافظون على ما تبقى من ثقافتهم الفريدة حية (فُقد معظمها إلى الأبد في أعماق البحيرة الواسعة التي أنشأت مع افتتاح السد العالي).

إن مقدار مركزية أو تهميش هذه المجموعات في وقت ما يتوقف مباشرة على مقدار استبداد النظام المصري، والمؤسسة العسكرية الحاكمة الآن تمقت أولئك – المصريين والأجانب على السواء – الذين يلفتون الانتباه لمظالمهم. لكن هذه المجموعات مجتمعة تشكل أغلبية سكان مصر. إنهم مجتمعون مع ما تبقى من الإنتليجينسيا وحركة جماهيرية ناشئة من النشاطية العمالية العلمانية يقدمون الأمل الوحيد ربما بنشوء مصر مستقبلية متخذة التنوع والكرامة وحقوق الإنسان الفردية أسس لها. وسيكون لمقاومة المجموعات المصرية الدينية والعرقية للإخوان المسلمين خاصة والتأثير الزاحف من عقيدة الوهابية حتى الأكثر تزمتاً التي استوردها من هاجر إلى المملكة العربية السعودية، تأثيرات على العالم العربي الأوسع الواقع بدرجة كبيرة تحت سيطرة الحركات الإسلامية أو مهدد بحركات إسلامية شعبية، وأفسدتها الانقسامات السنية والشيعية المتنامية. إن واحداً من كل أربعة عرب هو مصري، أحد أسباب أن البلاد تاريخياً كانت رائدة الاتجاهات الإقليمي. وسواء يختار المصريون تبني الديكتاتورية والمروق أو الإسلاموية والمطابقة أو الديمقراطية والتنوعية فإن هذا الاختيار سيقرر أكثر من

مصيرهم هم فقط. ولم تتضح ، في أي مكان، نتائج هذه الاختيارات بأفضل من الموقف الذي واجهه الصوفيون والمسيحيون المصريون خاصة.

تُعقد عبر مصر كلها مهرجانات متعددة الأوجه معروفة بالموالد تكريماً لرجال ونساء مقدسين، مسلمين ومسيحيين على السواء (ومن قريب يهوداً أيضاً). وتتضمن شخصيات التوقير النبي وأحفاده ومؤسسي الطرق الصوفية وعشرات من المشايخ الأقل شهرة المحتفل بهم غالباً في مجتمعات ريفية بعيدة. وتجمع الموالد الأكبر، مثل مولد القاهرة المحتفل بالحسين (الابن الثاني للخليفة الرابع علي الذي يرثي جريمة قتله الشيعة خلال عاشوراء)، جماهير من أكثر من مليون شخص. واستناداً إلى وزارة الأوقاف المصرية هناك رسمياً أكثر من أربعين إحياء ذكرى سنوياً من هذا النوع، مع المسيحيين محتفلين أيضاً برجالهم المسيحيين المقدسين في مهرجانات ضخمة تجتذب بالمثل مئات الآلاف من كل مصر والعالم العربي الأوسع. ويسجل المجلس الصوفي في مصر ثمانين مهرجاناً آخر لمؤسسي طرق صوفية أقل شهرة. المفيد أن ستة ملايين رجل على الأقل في مصر – نحو ثلث الذكور البالغين من السكان المسلمين – أعضاء في أحد الطرق الصوفية؛ وعلى الأقل ضعف ذلك الرقم من الرجال – وأعداد لا حصر لها من النساء والأطفال – يشاركون في المهرجانات الفعلية التي تنظمها الطرق الصوفية. وإن احتمال إثارة هذه الأرقام لدهشة الأجانب لدليل على مقدار ميل تغطية مصر في وسائل الإعلام الغربية بتفضيل تحليل التطورات فيما يتعلق بالإخوان المسلمين حصرياً تقريباً، على حساب تيارات إسلامية أخرى أكثر اعتدالاً وانتشاراً. إن الإخوان المسلمين يدينون الموالد على أنها غير إسلامية، وهذا واحد من الأسباب التي تفسر لماذا عددهم صغير هكذا من حيث الأعضاء في صفوفهم أو سجلاتهم – إنهم في الأغلب نحو نصف مليون. فبحسب هؤلاء الأصوليين السنة، التوسل لرجال ونساء مقدسين، حتى الاحتفال بميلاد محمد، قريب من الوثنية، ويتفق مشايخ الأزهر معهم. مع ذلك، كما لاحظت كريستيان ساينس مونيتور في أكتوبر ٢٠٠٦، أن جهود الإخوان المسلمين والأزهر المشتركة، المحاولين ما في استطاعتهما، ثني تعبيرات الإسلام المصري الشعبي «حققت اجتذاباً ضئيلاً جداً» بين الجماهير. لقد «بحلق عينيه» أحد رسميي الإخوان الكبار، عندما سألته

المونيتور عن الموالد وقال: «نحن ضدها، إنها بقايا من الجاهلية» مستخدماً اللفظ العربي لعصر «الجاهلية» قبل مولد الإسلام. وأضاف «إننا نود لهذا أن يتوقف.» لكن وقف الظاهرة ستكون مهمة عسيرة. فالطرق الصوفية تمثل نوعاً من إسلام مارسته الأغلبية المسلمة في مصر. إنهم على هذا النحو فاصل يمنع التفسيرات المتطرفة والحرفية للعقيدة التي يروج لها أمثال الإخوان المسلمين. حتى نادراً فقط ما أتعب الإخوان أنفسهم بشكلية إيفاد مرشحين لهم جنوب القاهرة، حيث يعيش معظم المصريين وحيث تقليد المولد متجذر عميقاً جداً.

يجري أكبر مولد مصري في طنطا، المدينة الأكبر في دلتا النيل وخامس أكبر مدن البلاد. ويلتقي ما يصل إلى ثلاثة ملايين مصري وعربي كل أكتوبر في المدينة للاحتفال بحياة سيد أحمد البدوي الزعيم الصوفي من القرن الثالث عشر. إن هذه الأرقام مذهلة: إنها تجعل مولد طنطا حدثاً في التقويم الإسلامي أكبر حتى من الحج إلى مكة ذاته، العمود الخامس من الإسلام الذي يجذب هذه الأيام مليوني حاج من كل العالم الإسلامي. والهدف الظاهر لأولئك المشاركين في مولد طنطا، كما في الموالد الأخرى كلها، الحصول على بركات الرجل الصالح الذي مُيز يومه المحدد. إن المحور المادي لأي مولد هو مزار الرجل الصالح الذي يُزين بالأضواء ويُملأ بالبخور ويُفتح طوال الليل للحجاج. إنهم ينشدون آيات من القرآن ويقدمون الواحد للآخر حلوى أو مسحات من العطر. وتتحول المنطقة المحيطة بالمزار إلى مكان مهرجان يمكنه الاشتمال على سكان كل القرية (أو حتى مدينة صغيرة). ونجتمع مجموعات في خيام توفر مكاناً في الخلاء لحلقات الذكر. في الذكر يتم التضرع إلى الله ويُمتدح الرجال والنساء الصالحون عبر نشيد وغناء وتمايل إيقاعي.

يقود مولد طنطا ذي الأيام الثمانية والأول الذي أقيم في مصر، قائد صوفي يلبس عمامة منسوجة من قماش خص ذات يوم البدوي ذاته. ولد مؤسس ما يظل أحد أكبر طرق مصر الصوفية، البدوية، في المغرب وهاجر إلى الجزيرة العربية قبل الانتقال إلى طنطا عام ١٢٣٤ ليبدأ طريقة صوفية جديدة. لقد كان احتفالاً بريئاً من البداية وظل جانبًا محوريًا من الحياة في المنطقة والبلاد منذئذٍ. وعندما دُمر قبره في منتصف القرن التاسع

عشر التف حوله المواطنون بسرعة لإعادة بنائه. وتبين حقيقة حدوث مولد طنطا في نهاية موسم حصاد القطن مقدار الترابط الوثيق بين هذا المولد وأمثاله مع الطقوس الزراعية القديمة. فبينما قد تميز الموالد ميلاد رجل صالح، من المرجح جداً أن تُعقد تماماً في يوم مخصص لأسباب غير دينية أخرى. ففي الصعيد يمكن للمولد أن يُقدم شعائر فرعونية قديمة. وبالتالي فهي تطورت إلى نوع من كل ما يتضمنه الكرنفال، وكثير من المصريين يوافقون بعفوية أن مشاركتهم فيها أقل تعلقاً بمعتقدهم الديني من حصولهم على المرح. ذلك هو سبب أن كثيرًا من المسيحيين يقضون وقتاً كبيراً مع أصدقائهم المسلمين في الموالد الصوفية، وكثيرًا من المسلمين يقضون وقتاً كبيراً مع أصدقائهم المسيحيين في مهرجانات هؤلاء الآخرين. لقد مارس المصريون تقليدياً الإسلام بهذه الطريقة المميزة بالتسامح مع الآخرين وروحانية شخصية مكثفة وتأكيد قوي على التجارة (فالمولد فرصة كبيرة لكسب المال) و – ربما فوق كل شيء آخر – إحساس بالبهجة.

إن مولدي المفضل يحدث قبل رمضان بأسبوعين لإحياء ميلاد أبو الحجاج شيخ الأقصر وراعيها – إنه مهرجان استثنائي يتضمن سباقات خيل وجمال ورقص تقليدي وعراك رمزي بالعصا ، كل ذلك مصحوب بالموسيقى وأنوار نيون ساطعة وقرع طبول لا يتوقف. وتكون ذروة المهرجان موكبًا من مراكب كبيرة وعوامات أخرى تخترق الشوارع تمثل المواكب الشمسية للعصر الفرعوني التي كانت الأقصر قلبها تماماً. ولد يوسف أبو الحجاج الرجل الصالح في دمشق في القرن الثاني عشر وعاش في مكة قبل أن يقيم في الأقصر حيث أقام المُعتزل روحي. ولا يزال أحفاده يعيشون في المنطقة حيث يكون (كما في بقية الصعيد) تقليد احترام المشايخ المحليين متأصلا خاصة في الحياة الدورية الريفية المعتمدة على تغير الفصول وبالتالي على أوقات الحصاد. لقد أُعطي أحفاد أبي الحجاج شرف موقع المقدمة في موكب الشارع، ويمكن تمييزهم بسهولة من بملابسهم البيضاء الفضفاضة، وأغطية الرأس التي يلبسونها وحدهم. خلال رمضان نفسه، يؤدي الصوفيون المحليون الذكر في أمسيات خارج مسجد أبي الحجاج بجوار معبد الأقصر أحد مفاتن السياحة الفرعونية الرئيسة في المدينة. والأساطير كثيرة حول الشخصية الموقرة لهذا الصالح الصوفي والقوة الدائمة لروحه. لقد أبلغني حسين ابن

منتصف العمر وصاحب حانوت في السوق السياحي المحلي، ذات سنة ونحن نشاهد الاستعراض ونلقي حفنات من الحلوى على العوامات المارة المكتظة بالشباب في حالة شطح ونصف عراة وجذوعهم مغطاة برشقات لامعة من الطلاء، قائلاً، «العام الماضي، فقط قبل المولد، جاء جنرال من الجيش إلى المسجد وقال بأنه لن يكون هناك مولد إن لم يتم إزالة كل شيء. لكن بينما كان الجنرال يشير إلى أحد المناطق حول المسجد، خارت فجأة كل قوة ذراعه وسقطت إلى جانبه متهالكة. في تلك اللحظة أقر بالهزيمة. وابتهج الجمهور بشكل كبير وكما ترى،المولد مستمر كالمعتاد.»

كيف كان لمثل هذه الموالد أن تصبح جزءاً مركزياً جداً في حياة بلد يفتخر رسمياً بأنه بلد عربي سني؟ بالرغم من أن سكان مصر حقيقة الآن هم سنة بشكل كاسح، إلا أن تاريخ البلاد قوطع بفترة شيعية بدأت في القرن العاشر، عندما غزا الشيعة الإسماعيليون، مؤسسو السلالة الفاطمية، القاهرة ومن ثم حكموها. إن الجامع الأزهر المكان الأهم في التعليم السني في العالم الإسلامي اليوم، بناه أصلاً الفاطميون للمساعدة في نشر المعتقد الشيعي. ذلك العصر مغرق في الماضي طبعاً؛ لكنه ترك بصمة عميقة في هندسة القاهرة المعمارية وفي كيفية ممارسة وتفسير الإسلام في مصر. وإن الحب الشديد الخاص الذي يوليه المصريون لعائلة النبي (أهل البيت) وبعمومية أكثر للصالحين الشيعة الرئيسيين موجود بشدة أكثر من أي بلد آخر في العالم العربي السني. فليس غريباً، مثلاً، أن يتم تقديمك لثلاث أبناء في عائلة واحدة يسمون على وحسين وحسن – أسماء تُعطى فقط لأطفال شيعة في بلد سني أصولي مثل المملكة العربية السعودية. وبالمثل تقاليد مصرية أخرى مثل أكل الحلوى خلال العيدين لتمييز نهاية رمضان والحج، وحمل الرايات الاحتفالية لتمييز الفرق الصوفية خلال المواكب في الموالد ذاتها، جوانب أساسية من التقليد الشيعي. إن هذا التاريخ يعود بعيداً لشرح، عرضياً، الدعم الشامل داخل مصر لقائد حزب الله الشيعي، الشيخ حسن نصر الله: خلال قصف إسرائيل للبنان في ٢٠٠٦، رغم إدانة النظام الأولية لـ «طيش» حزب الله في محاولة للعب الورقة الطائفية (وهكذا يفعل طلب أمريكا بمحاولة تحويل الشعب المصري ضد حزب الله). ومع ذلك لم يستجب غالبية الشعب المصري الساحقة لأي شيء في الحملة المعادية للشيعة

المصاحبة التي أدراها حمقى وسائل إعلام الدولة المصرية. حقاً، لقد نشرت صحيفة الدستور المعارضة خلال الحرب ملصقًا مجانيًا لنصر الله، وفوراً كنت لتراه معروضاً في كل مكان تحت الشعار: «رمز المقاومة العربية.» وبعد ذلك، أدرك النظام لارتكابه لتخبط سياسي فادح فغير سريعاً سياسته وراح بدلاً من ذلك يدين «العدوان» الإسرائيلي. وكشفت استطلاعات الرأي، أيضاً، أن أحمدي نجاد رئيس إيران ذات الأغلبية الشيعية هو الزعيم الأكثر شعبية الثاني بين المصريين. إن ذلك يوحي بأن أي محاولة من قبل النظام المصري لإخفاء دعمها لحملة عسكرية تقودها الولايات المتحدة ضد إيران في المستقبل باللجوء إلى الانقسام السني-الشيعي الطائفي من المرجح أن يعطي نتائج عكسية، موسعاً أيضاً إلى مزيد الهوة الفاغرة الموجودة حالياً بين نظام مبارك والشعب المصري.

إذا كانت الموالد وأصولها الصوفية-الشيعية تتحدى الإسلام السني الأرثوذوكسي، فإنه يتبع ذلك طبيعياً أن الإسلام السياسي الصاعد في مصر منذ سبعينيات القرن العشرين، خاصة الإخوان المسلمين الزاحفين إلى التيار العام وترضيته من قبل خط الأزهر المتشدد بتزايد، ذراع النظام، قد يهدد يوماً ما بقاء الموالد ذاتها. سيكون هذا الأمر هكذا خاصة إذا وقع غير الوارد وحصل الإخوان المسلمون على السلطة فعلاً. وحيث أصبح التفكير الأصولي يهيمن على وسائل الإعلام، فحتماً تسرب هذا الفكر هابطاً ليصل بعض الجماهير المصرية، والنتيجة أن عدداً متزايداً يتساءل فيما إذا كانت الموالد حرامًا وبدعة – الانتهاكان الشديدان في قانون إسلامي متزمت. وبعمومية أكثر، يواجه تقليد المولد تهميشاً اجتماعياً وروحياً آخر إلى درجة أن مؤيدي هذه المهرجانات أصبحوا يحنون إلى ماضي الموالد. إن كثيراً من رواد الموالد يضعون اللوم على الدولة، بالإضافة إلى انتشار الأصولية الملهمَة وهابياً لتغيير وجه ليالي هذه التقاليد الماجنة. تبين آنا مادويف في مقالتها عن الموالد في الكتاب الممتاز كزموبوليتانية القاهرة (٢٠٠٦)، وحررته ديانا سينجرمان، أن سياسات الدولة لعبت جزءاً بالتأكيد. فهناك محاولات جائرة متزايدة من قبل بوليس المدينة والحكومة الوطنية لإغلاق الساحات العامة أمام مهرجانات الصوفية الشعبية الضخمة، ملاحظةً، «أنها طريقة لقمع التجمع الجماهيري من الحجم الكبير،» خاصة «بعد الاحتجاجات الجماهيرية الكبيرة في القاهرة بعد غزو ٢٠٠٣ م

الأمريكي للعراق.» ومع ذلك، فإن السبب وراء العدوانية المتنامية للموالد أكبر دقة وتعقيداً من مجرد كراهية الحكومة لتجار الشوارع أو القلق من الحشود الكبيرة. إن ذلك، مثلاً، بالكاد يفسر أعمال التخريب لبعض الموالد على يد المتطرفين السنة.

في أحد الموالد في الصعيد من سنوات قليلة ماضية، بينما كانت تُؤدى الأغاني الدينية على المسرح في الليل انتشرت شائعة عبر الجمهور بأن ولداً من الأهالي كان قد خُطف. «كان المولد على وشك أن ينهار،» أخبر أحد الحضور من قرية مجاورة جريدة القاهرة تايمز المتوقفة عن الصدور الآن، والتي كانت قد كشفت القصة كجزء من مظهر من التهديدات المواجهة للموالد في مصر اليوم. وأضاف، «صارت الأمور فوضى نوعاً ما. وكثير من الناس عادوا إلى بيوتهم لمعرفة ما جرى وتعجل المغني وأنهى مبكراً. لقد كان مولداً صغيراً لتبدأ به. وهكذا كانت أخبار مثل تلك كافية لتخريب كل شيء.» لكن اتضح لاحقاً أن الولد المخطوف كان عضواً نشطاً في مجموعة إسلامية وواحد من كثير من الأهالي المحافظين المعارضين لحدوث المولد. وبعد يومين عاود الظهور معافىً من «محنته» في الفراش، بالرغم من أن صحته بدت حسنة. استناداً إلى مقالة القاهرة تايمز، ادعى كثير من القرويين فيما بعد أن الاختطاف نُفذ لوضع مانع على احتفاليات المولد. «لقد كان كله اختلاقاً، مسرحية هزلية حتى لم يتمكنوا من حبكها جيداً. لقد قال قروي آخر، أنه «خُطف» في ليلة المولد نفسها، ولم يكن هناك أي حديث على الإطلاق حول ما يريده الخاطفون أو لماذا خطفوه أو يخدم أي مصلحة. لقد قيل إن النشطاء قلقون لأن التقليد المحلي كان يتم إحياؤه بعد غياب للتنظيم نتج عنه فترة بلا موالد لعدة سنوات. لقد حاولوا إقناع السكان بأن الاحتفاء بالموالد خطيئة. ويبدو أنهم بعد إحباطهم من فشلهم في ثني القرويين عن المشاركة، لجؤوا إلى الخطف المزيف لتعطيل الاحتفال. ولا يزال قرويو جيزة دلتا النيل من يتذكرون تنفيذ تخريب مولد بنفس الروحية. ففي منتصف التسعينيات، خلال مولد النبي المحتفي بميلاد النبي، وجدت رايات تزيين ميدان القرية والأضواء والأعمدة ومكبرات الصوت قد أُسقطت على صبحين متتاليين، وفُقدت راية مطرزة بعبارات دينية. لقد أعاد منظمو الصوفية، غير المرتدعين، تجميع حاجيات المولد ـ استمروا في احتفالاتهم. لكن في الصباح الثالث، وجدوا أن سارية

وراية أزيلا من ساحة الاحتفال قد ألقيا في بالوعة مفتوحة.

إن ما يبدو مقلقاً خاصة للأصوليين الاختلاط العشوائي للرجال والنساء في الموالد وهذا يشير إلى تأثير الوهابية، أيديولوجية دولة المملكة العربية السعودية، المتزايد على الحياة الثقافية المصرية منذ السبعينيات، عندما راح ملايين المصريين يهاجرون إلى المملكة العربية السعودية للعمل نتيجة ازدهار النفط. لقد أخذوا زوجاتهم وأطفالهم غالباً معهم وتم تسجيل الأطفال في مدارس محلية لا تقدم الكثير غير نشر العقيدة الوهابية. لقد انغمس العمال أنفسهم، ضعيفي التعليم غالباً أو أميين، وبذا فهم لديهم ميل للتلقين العقائدي، في الأيديولوجيا الوهابية المتطرفة التي تعم المساجد والمجتمع السعوديين والتي تلعن من بين أشياء أخرى كلاً من اختلاط الجنسين وتقليد المولد في عبادة الصلاح (الممنوعين لكليهما، مع تقريباً كل شيء آخر تماماً، في المملكة العربية السعودية). إن مصر تاريخياً ليبرالية من حيث سياساتها وعالمية من حيث نظرتها الثقافية ومعتدلة في تفسيرها للدين وتحتضن التنوعية في الرأي.

يمكن للمرء فقط أن يتأمل كم كان مفيداً للعالم العربي لو صدَّر المصريون إسلامهم الصوفي أثناء نزولهم بالملايين إلى المملكة العربية السعودية، بدلاً من جلبهم، كما في كثير من الأمثلة، الأيديولوجيا الوهابية لدى عودتهم إلى بلدهم. إن الأمر هو كذلك خاصة عند اعتبار أن الصراع الثقافي والديني المستمر بين مصر وعائلة آل سعود الملكية، التي تشكل الموالد ساحة معركة واحدة فقط له، يعود إلى حكم محمد علي أوائل القرن التاسع عشر، عندما أمره السلطان العثماني بطرد عائلة آل سعود وحلفائهم الوهابيين من مكة، التي كانت حينها منطقة شبه حكم ذاتي تحت السيطرة العثمانية لكن التي كان قد نجح آل سعود باحتلالها. نفذ محمد علي المهمة بنجاح تام، حتى أنه طارد الوهابيين المتطرفين راداً لهم إلى معقلهم في منطقة نجد وسط المملكة العربية السعودية، حيث ذبح معظم من كان قد هرب من المعركة الأولى. وبالتالي قدم محمد علي خدمة عظيمة للإسلام بتحرير مكة من المتزمتين الوهابيين. لكن للأسف، استرد آل سعود، بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية أعقاب الحرب العالمية الأولى، السيطرة على مدينتي مكة والمدينة المقدستين ومحافظات أخرى من المملكة العربية السعودية التي توحدت رسمياً وسميت بالمملكة العربية

السعودية في ١٩٣٢. لقد كان المصريون حتى عشرينيات القرن العشرين يحملون، في بداية الحج السنوي، القماش الأسود الذي يغطي الكعبة في المسجد الحرام في مكة، مصحوباً بالموسيقى الدينية والرقص والبهجة الصوفيين. وبعدما عزز آل سعود حكمهم على الحجاز في وسط العشرينيات، مع ذلك، قذفوا المصريين بالحجارة ولعنوهم كوثنيين، وانتهى تقليد حمل القماش فجأة. وبعد اكتشاف بحيرة النفط الواسعة تحت المملكة العربية السعودية، انتشرت الوهابية، الممولة من قبل عائلة آل سعود المثراة بالمال فجأة، مثل النار في الهشيم عبر العالم الإسلامي، بما في ذلك بعض قطاعات الشعب المصري. وقد وجدت الوهابية أرضاً خصبة خاصة مع صعود الإسلاموية في السبعينيات في ظل السادات وتشجيعه للإخوان المسلمين على العودة من المنفى في المملكة العربية السعودية. وأهمية تحويلات المصريين المالية العاملين في المملكة العربية السعودية للاقتصاد المصري شجعت سلبية النظام المصري في وجه صعود المملكة العربية السعودية.

بالطبع توجد هنا قصة طويلة، تحديداً كيف تخلت مصر تدريجياً عن دورها التاريخي كقائدة للعالم العربي منذ ١٩٦٧ وبدلاً من ذلك اتخذت مقعداً خلفياً وراء المملكة العربية السعودية، في كل من الدين والسياسة. وبالنظر إلى الخلف، لو بدا أن قومية ناصر العربية قد قدمت القيل للعرب ليحتفوا به، فبالتأكيد لن يأتي أي شيء جيد من العالم العربي طالما وهابيو المملكة العربية السعودية المتطرفون هم من في السيطرة. بالنسبة لمصر، نتائج انتشار الوهابية بادية مسبقاً. فكما رأينا، إدانة الموالد الشعبية كغير إسلامية من قبل المتعصبين الملهمين وهابياً هي واحدة، وانتقاء الأقلية المصرية المسيحية للتمييز ضدها، والتي تلعنها العقيدة الوهابية أيضاً ككافرة، هي ثانية.

من الغريب أنني كنت في رحلة إلى قلب الصعيد لزيارة قرية صديق على بعد نصف ساعة من المدينة الصناعية سوهاج، أثناء حدوث أحد الموالد هناك، أنْ حصلت على لمحة أولية عن محنة مجتمع مصر المسيحي القبطي. فخلال جولة في القرية في اليوم الأول، صاغ والد صديقي، المدير لمدرسة محلية، فكرة حرصت على تأكيد الصداقات الموجودة بين أصدقائه المسلمين والأقباط المحليين، محدداً الأقباط غالباً بعد تبادلهم التحية في الشوارع. ولكن عندما قمنا بسلسلة من الزيارات إلى بيوت أصدقائه أثناء ما كان الليل يهبط

واستعدادات المولد على قدم وساق، تبين أن لا أحد منهم كان قبطياً. وفيما بعد، عندما سألت صديقي إذا ما حدث في السابق أي اضطرابات بين المجتمعين في القرية، كشف عن غير قصد بأنه من سنوات قليلة ماضية كان هناك حقاً توتر شديد لأن الأقباط أكدوا لفترة قصيرة على حقهم لبناء كنيسة (حالياً بدلاً من ذلك عليهم القيام بتحويل منزل إلى كنيسة).

سألت، «هل كان ذلك حقاً سيسبب متاعب كثيرة؟»

قال، «نعم. هذه بلد مسلم.»

سألت، «ماذا كان سيحدث لو أصروا على بنائها؟»

لقد كانت برودة رده تثير القشعريرة: «كنا سنضربهم.»

كانت حدود «الصداقة» الطائفية واضحة فقد عُومل المسيحيون الأقباط باحترام طالما رضوا بوضعهم كمواطنين من الدرجة الثانية. وأنْ تأتي هذه الحدود من المسلمين «المعتدلين» الذين كانت تقاليدهم الاحتفالية الشعبية –أخرج المولد كل مسلمي القرية تقريباً من بيوتهم ذاك المساء –تحت تهديد الإسلام السني المتشدد يبين أن الأقباط كانوا في قاع النظام المُهاجَم المحلي مباشرة. لقد لاحظت جذور هذا التمييز في الطريق وأنا خارج من القرية في اليوم التالي. فكما في القرية ذاتها، كانت كل البيوت التي مررنا بها في التاكسي حديثة، أبنية بالطوب الأحمر –من الصعوبة أن تكون مثل صورة أبنية الصعيد المبتلاة بالفقر وذات الطوب الطيني التي يتصورها أولئك الذين يتحدثون عن إهمال الحكومة للمنطقة. وإذ سألت عن كيف نجحوا في الحصول على المال؟ أخبرني صديقي أن جميع الرجال تقريباً اشتغلوا في الخليج وكان هو يأمل بالسفر إلى المملكة العربية السعودية أيضاً حالما ينهي دراسته.

أخبرتني جورجيت قليني، القبطية عضو الحزب الديمقراطي الوطني الحاكم التي عينها مبارك مرتين في مجلس الشعب عندما قابلتها بلا سابق موعد فيما بعد في القاهرة ونقلت لها تجاربي في القرية، قائلة، «لم نشهد أية مشاكل طائفية في مصَر حتى نحو ثلاثين سنة مضت.» لقد بدا ما رويته صادماً لها كحكاية مألوفة تثير الاكتئاب. فأوضَحت بإنجليزية ذات لكنة فرنسية قوية، «لقد بدأ هذا الأمر عندما راح الإخوان المسلمون، خاصة من الصعيد، يسافرون إلى المملكة العربية السعودية ودول خليجية أخرى ليجدوا عملاً خلال ازدهار النفط في السبعينيات.» وواصلت بأن كثيراً منهم عادوا بعقلية وهابية

متطرفة جديدة غريبة عن بيئة مصر الدينية والثقافية المتسامحة تاريخياً، هذه الوهابية التي تُبلغ المسلمين بأنهم متفوقون على غير المسلمين. وادعت بأن تأثير مثل هذا التفكير «كان سريع الانتشار خاصة في السياسة المتنامية محلياً التي دعا إليها الإخوان المسلمون الذين احتضنهم السادات للمساعدة في تهميش اليساريين. وقالت، «عندما سمع مسيحيو مصر فجأة شعارهم المتكرر بلا نهاية، الإسلام هو الحل، ارتعدوا وشعروا بمزيد من الاغتراب عن التيار العام.» لقد كانت تكتم رعدة هي ذاتها وهي تقول ذلك. إن «دستورنا يقول كل مواطني مصر متساوون، لكن الواقع مختلف. يمكنني أن أعطيك المثال على ذلك، إذا كان لدى مالك مؤسسة مسلم أربعة أماكن متاحة، فإنه سيوظف أربعة مسلمين دائماً تقريباً. وإن كنا جميعاً متساويين، ألا يجب إعطاؤها لأفضل الأشخاص بغض النظر عن الدين؟»

دائماً يهدد عنف هذه الأيام بين المصريين المسلمين والمسيحيين بالخروج عن السيطرة. لقد اقتُبس رجاءي عطية عضو مركز البحوث الإسلامية التابع لجامعة الأزهر قائلاً، «الخطر الأكبر في مصر الآن تماماً هو الصراع الطائفي المتفاقم.» ففي الحادثة الأكثر درامية في ٢٠٠٦، هاجم مسلمون مهرة في استخدام المطاوي في الاسكندرية مصلين في الكنائس القبطية. مات مسيحي في الثامنة والسبعين من عمره وجُرح العديد. وخلال موكب جنازة الرجل المتوفى، انفجرت صدامات بين المسلمين والمسيحيين فمات أحد المسلمين وأكثر من أربعين جُرحوا من كلا المعتقدين وسجن العشرات. واستناداً إلى تقرير مدل أيست ريبورت أونلاين حينها، انفجر قتال الشوارع في اليوم التالي مرة أخرى، هذه المرة بعدما تظاهر مسيحيون في أحد شوارع الإسكندرية العامة الرئيسية حاملين صلباناً وهاتفين شعارات مسيحية. لقد كان الحي المسلم في الإسكندرية حيث حدثت هجمات الكنيسة مرتعاً لإسلام النمط السعودي لمدة طويلة.

ومع ذلك، كثير من المسيحيين ومراقبو حقوق الإنسان المصريين يشيرون بإصبع الاتهام أيضاً إلى حكومتهم. لقد أمكن لنظريتهم أن تتعزز عندما هالة حلمي بطرس، القبطية من الصعيد، ابتدأت مدونة لجذب الانتباه لما وصفته بالمضايقة والعنف المعاديين للأقباط. وحالاً وجدت نفسها رمزاً لذلك تماماً – فبعد إغلاق مدونتها،

اقتفى البوليس السري تحركاتها، وروقب تليفوناتها ورسائلها الإليكترونية. أخيراً، أخبر مجموعة من البلطجية – يعتقد أن الحكومة المحلية استأجرتهم – والدها وهم يضربونه: «هذه هدية من ابنتك.» ولكن هناك آخرون يعارضون بأن مثل هذه الأشكال من عنف الدولة ليس لها علاقة بالدين كلياً. يقول جورج إسحاق مؤسس حركة كفاية المؤيدة للديمقراطية المعارضة الداعية لقلب نظام مبارك سلمياً، «أنا قبطي وأعيش بسعادة في حي مليء بالمسيحيين والمسلمين.» ويقول إن «البوليس يرد بطريقة قاسية على أي اضطراب عام. وذلك ما يجعل كل شيء يخرج عن السيطرة.»

أيضاً، تشمل الشكاوى القبطية طويلة المدى الأخرى تمثيل المسيحيين الناقص في البوليس والقضاء والقوات المسلحة والخدمة المدنية والحكومة ونظام التعليم. وهناك منع فعلي على الوصول إلى الراديو والتلفزيون الحكوميين. إن أحد الأمثلة التي كثيراً ما يستشهد بها عن التمييز الرسمي هو قانون معمول به حتى الآن بالحاجة إلى موافقة رئاسية شخصية لتنفيذ إصلاحات في الكنيسة حتى ولو بسيطة مثل إصلاح مرحاض، والذي وجه إليه اللوم بسبب تأجيلات لأكثر من عقد في إصدار تصاريح ببناء كنائس. في ٢٠٠٥ سهل مبارك القانون، مفوضاً مثل هذه المسؤولية للمحافظين. فأثار هذا رد فعل مختلط من النشطاء (يعني الإسلاميين)، مع تسمية وطن الأسبوعية المسيحية القبطية المؤثرة له بدجل يهدف فقط لتهدئة النقاد الأجانب. لكن على الأقباط أيضاً الإقرار بوجود اتجاه انعزالي متنامٍ بين تجمعهم كما يُحاجج مفكرون مسلمون ومسيحيون آخرون. لقد وجدوا برنامج هجومي بشكل خاص على محطة الحياة الفضائية القبطية التي تستضيف أباً معيناً هو زكريا بطرس، قسيس مصري اعتقله النظام بشكل متكرر عندما عاش في مصر لكنه يعيش الآن في المنفى في الولايات المتحدة. في برنامجه كل أحد لمدة ساعة الشعبي، يرمي بشتائم فظة بعد أخرى على الإسلام والقرآن والنبي محمد، التي جميعها لم تثر إدانة قوية من أي أحد أكثر مما أدانها رئيس الكنيسة القبطية في مصر، البابا شنودة. بالتأكيد شخصيات مثل الأب زكريا تغذي مفاهيم مؤامرة أجنبية ضد «الوحدة الوطنية» التي كانت تضج بها وسائل الإعلام المصرية منذ انعقاد منتدى حول القضية القبطية في الولايات المتحدة في نوفمبر ٢٠٠٥. كان موضوع هذا المؤتمر الذي نُظم بمشاركة مؤسسات مهاجرين أقباط أن «الديمقراطية في

مصر يجب أن تفيد المسيحيين بقدر ما تفيد المسلمين.» واستناداً إلى مقالة مدل أيست ريبورت أونلاين فإن سياق المؤتمر المباشر كان صعود الإسلاميين في السياسة بعد انتخابات البلاد البرلمانية؛ لكنه كان أيضاً شهادة على صعود صورة المجموعات القبطية الموجودة في الولايات المتحدة. واستناداً إلى المقالة، وجدت مثل هذه المجموعات دعماً مرحباً من المحافظين الجدد ودوائر المسيحيين الأفنجيليكان في الولايات المتحدة. في الحقيقة، قامت بالدعاية للمؤتمر بينادور أسوشيتس – شركة العلاقات العامة المعروفة بقائمة أعضائها من عملاء المحافظين الجدد.

في القلب من نظريات المؤامرة المتعددة الآن شخصية متعلمة في الولايات المتحدة والأكثر إثارة للجدل في المجتمع القبطي اليوم الأسقف ماكس ميشيل. انتقل منذ بضعة سنوات إلى الولايات المتحدة ليواصل دراساته العليا في مدرسة القديس إلياس للاهوت الأرثوذكسي. يقول بأنه حصل على الدكتوراة في اللاهوت عام ٢٠٠٤. ورُسِم أسقفاً من قبل المجمع الكنسي المقدس للمنفيين الأمريكيين من المسيحيين الأرثوذكس الحقيقيين، أصحاب التقويم القديم الموجودة في نبراسكا. وبعد عام، رُقي إلى رتبة مطران من قبل نفس المجمع الكنسي، وأخذ الاسم الملكي مكسيموس الأول. وبعد عودته إلى مصر أعلن الأسقف بن الثامنة والخمسين نفسه مطران مسيحيي مصر والشرق الأوسط الأرثوذكسي، التحدي الواضح لسلطة البابا شنودة الذي لقبه الكامل بابا الإسكندرية المائة والسابع عشر وبطريرك الكرازة المرقسية. ثم أعلن أنه كان يؤسس مجمعاً كنسياً أرثوذكسياً جديداً. تبع ذلك دعوة رسمية له لحضور احتفالات الرابع من يوليو (يوم الاستقلال) في سفارة الولايات المتحدة في القاهرة، بحسب مصر اليوم، مثيرةً أسئلة حول دور الولايات المتحدة في الموضوع. مع ذلك، أصدر سفير الولايات المتحدة في مصر فرانسيس ريكياردون لاحقاً تصريحاً ينفي أن الولايات المتحدة كانت تدعم ميشيل.

يعبر ميشيل عن انتقادٍ فظ للبابا شنودة والنظام الإداري للكنيسة الأرثوذكسية القبطية، التي يقول بأنها شبيهة بـ «كنائس محاكم التفتيش في العصور الوسطى» في التعامل مع أولئك الذين يتبنون آراءً مختلفة عن آرائهم. لقد أخبرني في كنيسة القديس أثاناسيوس في القاهرة مرتدياً زياً بابوياً، «إن التوجه والسلوك داخل الكنيسة (القبطية) كما كان في العصور

الوسطى.» وأضاف، «إن السلطة الوحيدة للبابا. يجب أن يُطاع. علينا العودة إلى ما يقوله آباء الكنيسة الأرثوذكسية المؤسسين الأصليين، وليس لما يقوله البابا. حتى المصلين تم إبلاغهم بعدم شراء صحف معينة منتقدة للبابا شنودة، وأُخبروا أنهم بشرائها فعلاً لن يعودوا مقبولين في الكنيسة.» لقد قالت كنيسة مصر الأرثوذكسية القبطية في تصريح لها: «عُين ماكس ميشيل بواسطة أناس تخلوا عن الكنيسة الأرثوذكسية... ولهذا لا تعترف الكنيسة بسلطته.» وأبلغ متحدث الكاتدرائية الأرثوذكسية القبطية الرسمي في القاهرة الصّحفيين بأن هناك احتمالان بأن مثل هذا «الانقسام» دعمته الولايات المتحدة حقاً في إطار جهودها لإيذاء شعبية البابا شنودة. لكن ميشيل أنكر وجود أي علاقات بحكومة الولايات المتحدة، فقد أخبرني، «إن لي علاقات فقط مع الأصدقاء الذين كونتهم خلال أيامي كطالب بين بعض المصريين الذين قابلتهم والذين يعيشون في أمريكا.»

استناداً إلى مصر اليوم، ترك ميشيل تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية بسبب ثلاث نقاط كبيرة. فبينما تصر الكنيسة الأرثوذكسية على السماح بالطلاق فقط في الحالات التي يتبنى فيها أحد الزوجين عقيدة أخرى أو في حالة الزنا الصريح، يعارض ميشيل قائلاً بأن هناك ثماني أسس على الأقل يمكن فيها للمؤمن أن يطلب الطلاق. وهو أيضاً يقوم بالحج إلى الأماكن المقدسة في القدس والضفة الغربية المحتلة، الشعيرة الممنوعة من قبل البابا شنودة، الذي قال بأن الكنيسة لن تطبع العلاقات مع إسرائيل حتى تكون هناك تسوية دائمة للصراع الإسرائيلي-الفلسطيني. ويحاجج ميشيل أيضاً بأن ليس هناك أسس دينية تمنع الأساقفة من الزواج. إنه هو متزوج وله طفلان، رغم أن القسس غير المتزوجين هم فقط المؤهلون للتعيين لرتبة أسقف في ظل القانون الكنسي القبطي.

ميشيل واثق بأن الحكومة المصرية ستوافق على الاعتراف رسمياً بكنيسته الجديدة. فقد قال بعد تأسيسها بسنة بأنها تملك حالياً عشرة أفرع في كل البلاد وآلاف التابعين. لكنه متأكد بأنه سيستمر في مواجهة معارضة قوية ليس فقط من داخل الكنيسة القبطية وفي محاكم القانون المدني، لكن من أصوات قبطية عامة أيضاً. فزعيم الأعمال القبطي البارز منير فخري عبد النور نشط ضد ميشيل بعد عودته إلى مصر مسمياً له بـ «دجال».